الفصل الثّاني

"عن العلم والدّين، وتصنيع الإعجاز العلميّ"

obeikandl.com

obeikandl.com

*العلم حقلٌ خاصٌّ يحكمه المنهج العلميّ القائم على الاستقراء والتّجريب والبرهنة، ومجاله العالم المحسوس بذرّاته وأجرامه وكائناته الحيّة وغير الحيّة والبيئة الطّبيعيّة والاجتماعيّة.... إلخ

أمّا العقيدة فهي حقلٌ خاصٌّ آخر، تتناول جوانب أخرى بعيدةً بشكلٍ عامٍّ عن اهتمامات العلم، فتهتمّ بالإجابة عن تساؤلاتٍ تخصّ الموت والحياة والمصير، بناءً على تصوّرٍ إيمانيٍّ غيبيٍّ غير برهانيّ "مستحيل البرهان".

وبرهان العقائد والأديان و"الرّسالات" ليس في علميّتها أوإمكانيّة اختبار تصوّراتها تجريبيًّا، بل برهانها في صلاحيّتها؛ لتحقيق تنميةٍ فرديّةٍ ومجتمعيّةٍ مُستدَامةٍ توظّفُ العلم بشكلٍ إيجابيٍّ، لكنّها لا تزاحمه، وهي تعمل عملها -إنْ أُحْسِنَ استخدامها- كضميرٍ جمعيٍّ وحافزٍ إيجابيٍّ في الحياة، وبما يحرّر الإنسان من الظّلم والقصور.

بالتّأكيد ليس حال كلّ العقائد كذلك؛ فثمَّة طرائقُ تشكّلٍ للعقائد، تبرّر الظلم، وتحُثّ على الكراهية والقتل مثلًا، لكنّها عندئذٍ تبرهن على قصورها، وقصور من يؤمن بها، ويتمثَّلُها.

*هل البرهنة على نظريّة فيثاغورث في حساب زوايا المثلّث القائم تقع على عاتق العلم أم الدّين؟! وحتّى لوعرض أحدهم إجابةً مُستقاةً من الدّين والنّصوص المُقدّسة-مع التسليم بخطأ هذه الإجابة؛ لأنّها ستكون من باب التّعسّف والتّحاذق- فهذه الإجابة لن تكون مقنعةً وملزمةً لعموم البشر دون قرائن نأخذها من حقل العلم نفسه.

والحقيقة العلميّة -مع التّسليم بنسبيّتها- مُلزمةٌ لكلّ النّاس حتّى لمن ينكرها بغضّ النّظر عن عقيدته ولونه ولغته، بل وحتّى في حال كونه متخلِّفا عقليًّا؛ فالأرض تدور حول الشمس بغضّ النّظر عن رفضنا أوقبولنا ذلك على سبيل المثال.

*هل ثمّ بعثٌ بعد الموت؟

ليس لدى العلم إجابةٌ دقيقةٌ حول هذا التّساؤل في حدود المعرفة العلميّة المتاحة؛ فالعلم يقوم على التّجربة والملاحظة والإجابة/ الإجابات تكون في حقل الدّين تبعًا لتنوع تَحَوّيَات العقد الفئويّ الخاصّ بالفرد والجماعة، وبما لا يُلزم الآخرين....إلخ.

وسأضرب مثالًا آخر عن إنسانٍ مصابٍ بمرضٍ خبيثٍ في مرحلةٍ متقدّمةٍ من المرض.

ماالّذي يقدِّمُهُ له الدّين؟ ماالّذي يقدِّمُهُ له العلم؟.

من ناحية العلم: تخفيف معاناة المريض بتسكين وتأجيل العواقب وإطالة متوسّط البقاء على قيد الحياة في حدود المعرفة العلميّة المُتاحة الآن.

من ناحية الدّين: التّسليم بحتميّة الموت، والرّضا بالقدر الإلهي والتماس الشّفاء بالدّعاء، وأن يخفّف الله عنه، وأن يميته الله على الإيمان، وأن يحظى بالنّعيم الأخرويّ "في حالة العقائد الّتي تؤمن بالبعث"....إلخ

فلكلّ إجابةٍ منهما مجالُ فعاليتها ومشروعيّتها.

*بعد هذه المقدمة نتساءل: هل ثمَّ مجالٌ للتّداخل بين العلم والدّين؟!

لا علم دون المنهج العلميّ؛ فالمنهج العلميّ هوالّذي مكّننا نحن البشر من تحقيق كلّ هذه الكشوف والاختراعات العلميّة؛ فالعلم ليس النّتائج فقط، بل هوطريقة الوصول لهذه الحقائق ومنهج البحث العلميّ، بما يمكّننا من التّحقّق من هذه النّتائج وتصويبها باستمرار.

أمّا"المنهج القرآنيّ" فهويعالج قضايا مختلفةً عمّا يعالجه العلم: قضايا تتعلق بالإيمان والتّوحيد والشّعائروعالم الغيب والقيم الأخلاقيّة والإنسانيّة، وهذا حقلٌ له خصوصيّته بما يختلف عن حقل العلم، لنأخذ مثلًا الإيمان بعوالم الغيب: فهنا الإيمان لايعتمد على المنهج العلميّ- الدّقيق- ببساطةٍ؛ لأنّ موضوع الحديث هوالغيب، والغيب قابلٌ

للإيمان والتّصديق وقابل لغير ذلك"الّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ "البقرة "٣"، وهذا خيارٌ شخصيٌّ قد يكون له تبعاتٌ دنيويٌّة وأُخرويّة.

ولوكان "المنهج القرآنيّ" هونفسه المنهج العلميّ؛ لكان مباحًا لنا استخدام المنهج القرآنيّ في إثبات وإنكار موضوعاتٍ علميّةٍ، وهذا ما لم يقرّه حتّى علماء المسلمين في التّاريخ، بل نجد أنّ ماحقّقه علماءٌ مسلمون في الماضي والحاضر كان نتيجة تطويرهم للمنهج العلميّ والبحث بأدوات وقوانين العلم، وليس الدّين.

فعندما يتعلّق الأمر بالعلم؛ علينا قراءة الكون والطّبيعة تبعًا لقوانينها الخاصّة.

وإذا تعلّق الأمر بالإسلام من التّعسّف تجاوز دلالات النّصوص القرآنيّة والمصالح الّتي تعرضها؛ فلا يُطلب من القرآن الكريم أن يكون كتاب علمٍ -بالمعنى الخاصّ لكلمة علم- فذلك ليس أكثر من إساءة استخدامٍ للقرآن الكريم، وتواطؤ في عمليّة تسهيل طعنٍ غير مبرّرٍ به.

*هناك علمُ فيزياء ملزمٌ برهانيًّا لكلّ البشر-بغضّ النّظر عن قبولهم له أورفضهم له، وبغضّ النّظر عن معرفتهم أوجهلهم به-، والعالِم الجيّد من يطوّر، ويتفوّق في هذا العلم ضمن شروط المنهج العلميّ، ولا يوجد علم فيزياء عربيٌّ أوفيزياء فِرنسيٌّ وفيزياء هنديّ، ولا يوجد فيزياء إسلاميّة

وأخرى مسيحيّة وأخرى ماركسيّة ....إلخ، فبغضّ النّظر عن الخلفيّة للمشتغلين بالبحث العلميّ قوانين الميكانيكا واحدةٌ، ومُلزمةٌ لهم، وهي الّتي تُمكِّن البشر من ركوب السّيّارة مثلًا، ونحن نبحث عن السّيّارة الأجود، فليس ثمَّة سيارةٌ مسلمةٌ وأخرى يهوديّة.

أمّا في حقل العقائد الأمر مختلفٌ؛ فلا توجد عقيدة فقط، بل هناك عقيدةٌ إسلاميّةٌ وعقيدةٌ مسيحيّةٌ وعقيدةٌ ماركسيّةٌ..... إلخ، وضمن العقيدة الواحدة هناك تفريعاتٌ مختلفةٌ كذلك.

وكذلك اللغات على سبيل المثال، فليس هناك لغةٌ فقط، بل هناك لغةٌ عربيّةٌ وإنجليزيّةٌ و..... إلخ.

*إذا سلّمنا -بناءً على ما سبق- بالفصل بين حقلين لكلٍّ منهما خصوصيته فهذا لا يمنع من وجود علاقة، حدودها التّالية مع النّصّ القرآنيّ، فعلى سبيل المثال:

أوّلًا: حثّت الآيات القرآنيّة على التفكُّر والتّدبّر في الكون؛ لتأمّل عظمة الخالق وقدرته اللانهائيّة؛ فكثيرًا ماتنتهي الآيات القرآنيّة بـ"إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون"، "إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون"، "أفلا يتفكّرون"، "أفلا يعقلون".

ثانيًا: حثّت الإنسان على طلب العلم ومعرفة القوانين النّاظمة للعلم ومعرفة أسرار الوجود.

ثالثًا: الالتزام بالمعايير الأخلاقيّة والقيم الإسلاميّة الحيويّة؛ لاستخدام مُخرجات العلم ومنع إساءات استخدام العلم.

* أخيرًا لنقف مع قضية الإعجاز العلميّ، وتراني هنا مُنْزَاحًا لتيارٍ عريضٍ نجد بداياته مع الشّاطبيّ، وصولا، إلى محمود شلتوت وعائشة عبد الرحمن "بنت الشّاطئ"، ويمكننا استعادة أجواء سجالٍ خصبٍ بين د. عائشة عبد الرحمن، وبين د.مصطفى محمود في أوائل السبعينيّات على صفحات جريدة الأهرام حول الإعجاز العلميّ....إلخ.

فالإيمان بدعوى الإعجاز العلميّ في القرآن شيءٌ، والإيمان بالقرآن الكريم ككتابٍ مقدّسٍ من مصدرٍ إلهيٍّ شيءٌ مختلفٌ، وهما ليسا بمتلازمين.

*إنّ هذه الدعاوَى -دعاوى الإعجازيين- موجودةٌ في شتّى العقائد والملل، وليست حكرًا على المسلمين؛ فهناك عشرات الدّوريّات والمواقع الإلكترونيّة المسيحيّة المتخصّصة في الإعجاز العلميّ في أسفار العهد القديم والجديد مثلًا.

وكذلك دعاوى الماركسيّين وادعائهم بأنّ الماركسيّة علم العلوم؛ فقد درّست الماركسيّة على اعتبارها علمَ العلوم في أكاديميّات الاتحاد السّوفيتيّ السّابق، فذهبت الماركسيّة على الأقل بصيغتها السّتالينيّة أدراج الرّياح، وبقي العلم.

*يقول الإمام الشّاطبيّ:

"علم التّفسير مطلوبٌ فيما يتوقّف عليه فَهم المُراد من الخطاب، فإن كان المراد معلومًا؛ فالزّيادة على ذلك تكلّف، ويتبيّن ذلك في مسألة عمر:

وذلك أنّه لمّا قرأ "وفاكهة وأبّا" توقّف في معنى "الأَبّ" وهومعنى إفراديٌّ لايقدح عدم العلم به في علم المعنى التّركيبيّ في الآية؛ إذ هومفهوم من حيث أخبر الله -تعالى في شأن طعام الإنسان أنّه أنزل من السماء ماءً، فأخرج به أصنافًا كثيرةً ممّا هومن طعام الإنسان." "١"

ومشهورٌ خبر عمر بن الخطاب مع "ضبيع" في سؤاله عن أشياء من القرآن لاينبني عليها حكمٌ تكليفيٌّ وتأديب عمر له؛ فتفسير القرآن الكريم غرضه فهم المُراد من الخطاب، فإذا تمَّ ذلك، كان ما عداه تكلّفًا لا طائل منه.

وسأضرب مثالين على ذلك من أشهر الأمثلة الّتي يسوقها الإعجازيّون:

المثال الأوَّل: {مَثَلُ الّذينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوكَانُوا يَعْلَمُونَ.... "العنكبوت - ٤١"

فالمراد من الخطاب واضح لكلّ من يلمُّ بالعربيّة: فمن يؤمن بالله بيته قويٌّ متينٌ، ومن يشرك بالله، ويعبد الأصنام بيته واهنٌ كبيت العنكبوت، وكون بيت العنكبوت واهنا، هومايعرفه عموم النّاس من واقع حياتهم، فيستطيع طفلٌ صغيرٌ بإصبعه أن يخرّب بيت العنكبوت الواهن.

المثال الثاني: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}.... "الأنعام- ١٢٥"

فالمُراد من يُرد الله هدايته، يشرح صدره للإسلام؛ فييسّره له، وبذلك يرتاح قلبه، ومن يُرد الله له الضّلال؛ يعسِّر لهُ؛ فهوكمن يريد أن يصعد إلى السّماء، وهولن يقدر على ذلك، وفي ذلك مشقّةٌ وضيق.

فالصّعود إلى السّماء عملٌ شاقٌّ بداهة، يقبض الصّدر، ومثاله من يتسلّق الجبل مقتربًا من السّماء، وهذا مِمَّا يعرفهُ، ويسلِّم به عموم

النّاس، ولا داعي للتذكير بأنّ دلالة السّماء هنا هي ما يقرّه عموم النّاس من ناطقي العربيّة اليوم.

*ما يؤخذ على مقالات الإعجازيّن، افتقادها للتّوثيق العلميّ، وذلك من ركائز البحث العلميّ، فدونه ليس ثمَّ علمٌ ولا بحثٌ خاصّةً أنّهم -في زعمهم- يتحدّون العلم نفسه.

ويستخدمون عباراتٍ من قبيل: وثبت أنّ المراجع الطّبيّة، ومن المعروف أنّ، وثبت بالتّحليل الدّقيق أنّ، تبيّن من خلال الدّراسات أنّه، وقال الدّكتور فلان الفلانيّ، وقال البروفيسور الإنجليزيّ فلان الفلانيّ المتخصّص في، وفي البرنامج العلميّ في قناة ال BBC، وفي المؤتمر العلميّ في باريس....إلخ.

فمن المُسلَّم به: أنّه في كلّ علمٍ من العلوم، يوجد كتبٌ مرجعيَّةٌ هي بمنزلة حجّةٍ في اختصاصها، ويوجد -عادةً- مجلّاتٌ علميّة معروفةٌ جيّدًا ضمن كلّ اختصاص العلميّ، تنشر دراساتٍ محكّمة، وماعدا ذلك، فقليل المصداقيّة لايُحتجّ به، وسأضرب مثالًا من واقع اختصاصي العلميّ "طبّ الأعصاب".

فأيّ معلومةٍ أستخدمها أوأيّ دواءٍ أوإجراءٍ طبّيّ أقوم به، أنا مطالبٌ - علميًّا ومهنيًّا بل وقانونيًّا- أن تكون موثّقةً في مصادر ومراجع هي حجّة في الاختصاص، وأهمّها على سبيل المثال من الكتب:

.manual neurologic therapeutics up to date- text book- Adams

ومن المجلّات العلميّة كـ American academy neurology-nature neuroscience

أوحتّى مواقع إلكترونيّةٍ رصينةٍ كـ American Board of Psychiatry and Neurology.

والدّراسات العلميّة الجادّة تشير إلى ثغراتها، وتشير إلى نسبة احتماليّة المعلومة الّتي تقدّمها، وهل يُعتمد عليها أم لا في الممارسة العلميّة ....إلخ.

وعلى سبيل المثال لا حجّةً علميّةً في أن يقول الطّبيب فلان رغم كونه مختصًّا في هذا العلم، فهنا لا يمكن استبعاد القصور الّذي يعتري أيّ فردٍ والتّأثيرات الثّقافيّة المختلفة عليه؛ فدراسات الإعجازيّين تعاني عيبًا منهجيًّا في توثيق المعلومة، وتعاني كذلك عيبًا منهجيًّا في خرقها لمنهج البحث العلميّ في كونها:

- تعتمد على المصادفة الواردة الحدوث.

- تأويل المعنى المجازيّ؛ ليصبح حقيقيًّا، والعكس أيضًا بما تقتضيه ضرورة الإعجاز مسبق الصّنع!

- الخلط بين الخبرة الاعتياديّة للإنسان، وبين الحقيقة العلميّة.

- إهدار البعد التّاريخيّ فيما يخصّ تاريخيّة النّصوص المقدّسة، وفيما يخصّ المعلومة العلميّة المُقدّمة.

- اختيار عيّنات غير عشوائيّة "منتقاة" من الآيات القرآنيّة والأحاديث؛ للدّلالة على الإعجاز.

- دغدغة عواطف ومشاعر الإيمان؛ لتسهيل قبول القارئ والمُسمَع لهم.

- تقرير نتيجة البحث قبل الشّروع في البحث؛ فالمطلوب هوإثبات وجود الإعجاز، وليس شيئًا آخر.

*لكلّ علمٍ ثمرةٌ نلمسها في الحياة؛ لذلك فإنّ ثمرة العقيدة تُترجم في صلاح الإنسان والجماعة والبشريّة في الحياة، و"عالم ما بعد الحياة".

يقول الشّاطبيّ في "الموافقات": "كلّ مسألةٍ لا ينبغي عليها عملٌ؛ فالخّوض فيها خوضٌ فيما لم يدلّ على استحسانه دليلٌ شرعيٌّ، وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هومطلوبٌ شرعًا، والدّليل على ذلك استقراء الشّريعة، فإنّنا رأينا الشّارع يعرض عمّا لا يفيد عملًا مكلَّفا به، ففي القرآن الكريم: "يسألونك عن الأهلّة، قل هي مواقيت للنّاس والحج"، فوقوع الجواب بما يتعلّق به العمل إعراضٌ عمّا قصده

السّائل من السّؤال عن الهلال: لِمَ يبدوفي أوّل الشّهر دقيقًا كإلخّيط، ثُمّ يمتلأ حتّى يصير بدرًا، ثُمّ يعود إلى حالته الأولى؟"٢"

ويحقّ لنا أن نتساءل عن ثمرة دعاوَى الإعجاز العلميّ ليس منذ نصف قرنٍ فقط مع ظهور الإعجازيّين الجُدد، بل منذ أكثر من ٨٠٠عامٍ مع فخر الدّين الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) وأبوحامد الغزاليّ وابن أبي الفضل المرسي، وغيرهم الكثير."٣"

فبعد مرور نصف قرنٍ على اشتغال الإعجازيّين الجدد ماذا قدّموا للعلم؟!
كم من الأدوية والعقاقير اخترعوا، وأفادوا بها البشريّة؟!
كم من الاكتشافات الجيولوجية والفلكيّة قدّموا لنا؟!
ماالجديد الّذي قدّموه في علوم الفيزيلوجيا والكيمياء والفيزياء والرّياضيّات وعلوم الحاسوب....إلخّ.

الإعجازيّون مُطالبون -أدبيًّا- أن يقدّموا، ولوبراءة اختراعٍ واحدةٍ لدواءٍ موثقٍ في هيئة الأدوية والأغذية الأمريكيّة أو أيّ مؤسسةٍ علميّةٍ معترَفٍ بها عالميًّا.
ولن تسعفهم نظريّة المؤامرة؛ فشركات الأدوية هي شركاتٌ تجاريّةٌ تتبنّى، بل وتموّل أبحاث أيّ دواءٍ يُثبت فعاليّته؛ فرأس المال ليس له دين!
بعد مرور نصف قرنٍ على دعاواهم ماالّذي قدّموه للإسلام والمسلمين؟

فالمسلم ليس بحاجةٍ لإعجازٍ علميّ؛ ليكون مؤمنًا ومسلمًا صالحًا، وهوسيصوم رمضان بغضّ النّظر عن الإعجاز العلميّ في صوم شهر رمضان، وللأسف لم يلمَس المسلمين بوجود هذا الجيش الجرّار من الإعجازيّين والميديا المسترزِقة بهم- وجلّهم من حملة الشّهادات العلميّة- تطوّرًا علميًّا وتكنولوجيًّا يدخل مجتمعاتنا في ركاب العصر، ومجتمع العلم والمعرفة.

وأختم بالتّساؤل التّالي: لماذا لا نُعجزُ العَالَم بالعِلم، وليس بالإعجاز العلميّ؟!

فهل الإعجاز العلميّ -في حال وجوده- حجّةٌ على المسلمين، أم حجّةٌ ضدّهم؟!

obeikandl.com